الأمة العظمى

مقدمة « حقائق لبنانيـــة »
لجورج سكاف، نوار ١٩٦٠

حقائق لبنانية ! وهل يتطلّبُها الوضع ؟ بلى، وسيتطلبها استمراراً.

لا نقولها تخوّفاً على وطن كما الرأسُ من الجسم صغير أو على أمّة لا كما الجنسُ البشريّ من مليارات ومليارات بل حَفْنة عدد (والوطن باقٍ والأمّةُ باقية كما، عفوه تعالى، وهو باقٍ الله) وإنمّا نقولها تذكيراً بمجد واستزادةً من عزم يَلذّ وأحياناً يُسكر.

إيمانٌ في صميم الصميم من كلّ لبناني، أيّاً كان منبتُه

أو مهوى فؤاده، يُعلنه لنفسه متى خلا بها ولم يكن إلى جنبه من يزكزكه محتكراً عليه اللبنانية قال لِمحض ما انه هو على دين وذاك على دين آخر.

اللبنانيون جميعاً، قصدتُ من وُلدوا على هذا الثرى الذي من فَتّ المسك، وتحت هذي السماء التي لزرقة لا تضارَع تكاد تكون أنضرَ ما عمدته زَنْدُ الله، وكذلك من انتموا اختياراً إلى هذا الثرى وهذي السماء، إنما يستحيل أن يُقصّر واحدُهم عن الآخر في التعلّق بوطنٍ هو حُقّ أمّة وبأمّة هي مُقولبةُ وطن، الواحدُ حدود الجمال والأخرى جماعةٌ تَفرّدوا فما نشط مثلَهم أحد ولا مثَلَهم أحدٌ سخا وأبدع.

نداءٌ ولا السّحْر يوجّهُهُ لبنان، أرضاً وتاريخاً، إلى الجسَد والعظم، إلى نبضة القلب، إلى الروح ونسمة الحياة، من كُلّ مَنْ أُعطيَ قُلامةً من حظّ بأن يكون لبنانياً.

تراني أغلو ؟ أتخيّل الريح المحملة حنقاً كلما انتهت إلى قممنا تبدلت وغدا غضبُها شَمَماً، والموجةَ الوافدة من

آخر الأرض قلقةً موجعَة كلما حطّتْ في شطّنا عادت هي أيضاً إنسانية. والحياة الأجنبية كلما تنشّقَتْ من عَبق زهر الليمون في صيدا أو انطلياس أو طرابلس استحالت بعضاً منا، من نَسْجِنا، من لون أفقنا، ومن شهامة خواطرنا الغنيّة المثناف. ثَمَرٌ مشاتِلُه عند مُنقلب العالم ما كاد يتأقلم في لبنان، يَربى على المطلات العالية ويترنّح غصنُه والورق، فوق، على رياح الجبل، حتّى عاد وهو ذو النكهة التي من ماء الورد والطعم الذي من سُكّر الخمر. تفاحُ كاليفورنية، هذا الذي عَنيت، ظلّ أشبَه بالنبات البريّ حتى اكتسب أمّويّة اللبنانيين. وكانت المسيحيّةُ قد غدتْ أنعمَ وأطرف منذ أن هدهدتْ أجراسُها بنتَ قنّوبين الحلوةَ الحلوة مارينا، والإسلامُ قد ازداد وَتَراً ولا أروع منذ أن عَمر به صدرُ ابنِ بعلبك الأوزاعيّ العظيم.

غيرُ واقفين على نَفْح هوائنا، وقرْشَةِ مائنا، وطرافةِ الخواطرِ في بالنا، وجَللِ ما يُمكن أن تصنعه إبهامٌ لنا كلما التقت بسبّابة، أولئك القائلون بأنه يُحتمل أن يكون منا واحدٌ ليس مولعاً بلبنان، حُقاً ومحتوىً، أوْ ليس مُدّلاً على البشر جميعاً لِمحض ما انه لبناني.

كُفْرٌ ذلك لا بالناس بل بجبلٍ أوجد بعضاً من أجمل نماذِج الناس.

أجسامٌ فيها من عناد الصخر ونُبلِ القِمّة، من لُطف النسيم وطموح الموجة، وفيها من بهجة المنظر يتنوّعُ كل آن. وعيش فيه من كلّ حرمان إلاّ أنه الحُريّة بالذات، وفيه من إرادة لا تُوقَف بتبديل الذات والكون أكثفَ وأجمل، وربما بتبديل الطريق إلى وجه الله. وعلائقُ بالسوى، على كونها عند الاقتضاء بلغتْ ذروةَ البطولة، ظلّت أبداً تريد نفسها إبداعاً لا سَفْكَ دم. إنها لعمري قصّة إنسان أُعطي وُسْعَ العطاء، فاذا هو المقدور يتطلّع إلى الممكن ومنه إلى خرق حدود المستحيل.

كفى بيار هوباك، مُفكّرَ أوروبة الإنساني، الواقفَ كما لا أحد على روح تاريخنا العظيم، أن يتماسّ بنا، وطناً وأمّة، حتى يضع عنا سِفراً فيه أسطرٌ أجمَلُ ما خرجَ من يد بشر، وحتّى يَعنفَ مع نصوص الكتاب المقدس فيقولّها الكلمةَ التي تُزلزل « وُلد الله في لبنان ».

في وجهِ وفد جاءه يوماً يطلب ربطَ لبنان بفرنسة، زأر فكتور برار، وهو يومئذ على دفّة الخارجية الفرنسية، وكان أجرأ من أفصح عن رأي ولو ضدّ نفسه:

ـــ « ماذا ! تُعطَوْنَ الحظّ بأن تكونوا لبنانيين وتريدون الانتماء إلى أمّة أخرى مهما كبُرت وعلا شأنُها ؟ اسمعوا. أنا أشدّ الناس تعلّقاً بهوميروس: وضعتُ عنه ثلاثةَ عشر مجلّداً لأنتهي إلى أنه ليس إغريقياً. واليوم تخوّلني دراسةُ عمر أن لا أتصور مؤسس أوروبة، شاعرَ الشعراء هذا، إلا عظيماً من عظماء لبنان ».

إلى نحو من ربع قرن كان لي أن أمُرّ صدفةً بروح لبنان. لم أقصد إليها، هي التي قالت لي حضورَها العليّ العظيم. ومنذئذ شرعتُ أتعرّف بها أكثر، أدرُسها اندلاعاً في التاريخ ونصوصاً تُفصح عن عظمة. وهكذا أُعطيتُ أن أنبش تاريخ الفكر اللبناني، وكان إلى يومها نَسْياً، يظنّه هذا غير ذي شأن ويخاله ذاك معدماً لا وجود له. حتى إذا أخذتْ أصابعي تبعثر اللألاء وتلهو بخواطر في أبهى ما

أطلعه العقل، رجّ في داخلي شعورٌ ولا كالولادة الجديدة بأن الأغارقة أنفسَهم لم يكونوا أمجد. وأيقنتُ كم نحن صائرون إلى موت إن لم نُغدق هذا الغيث على العقول العطشى. وافتتحتُ في عدد من معاهد التعليم عندنا تدريسَ المادة المنعشة. مُوحداً قمتُ بذلك ولمّا ازل. اليوم، وقد بلغ درسُ الادب اللبناني أشدّه، عدتُ لا أخشى عدواناً يقع على أُمةّ الارث الباهظ، أيا كان جبروتُ المعتدي. ذلك ان تلامذةً لنا هم هنا. سلطانهم لم يصبح كبيراً بعد، ولكنه على أيّ حال يجعلهم قادرين على اللهو بالموت.

النفسُ اللبنانية، ذاتُ الخدمة الراقية الى سبعة آلاف سنة، لا يعدلها سوى المعتَزم اللبناني.

لفترة من الدهر كانت صور تُدعى « الحاضرةَ التي لا تُغلب ». تجرّؤُها دون سواها على معاندة الاسكندر واحدٌ من فصول الكتاب.

على أنها تأبى أن تكون علّمت البطولة وحسب. منذ القديم القديم بَنَتْ صورُ للإنسان قصوراً وبنت معابد لله.

هيكلُ سليمان لم يشدْه الحيرمان، المهندسُ والملكُ، إلا لأنهما سليلا من سبق لهم أن بَنوا وأعلَوا.
لبنان، في أُسّ ما هو، بلدٌ مِعْمار.

العمارةُ غير الهندسة. هذه عِلم. أما تلك فعلمٌ عُزّز بجمال. الهندسة قوّة والعمارة قوةٌ تجلببت الروعة. من تلك إلى هذه خطوةٌ ما كانت لتُخطى لولا بعضٌ من مزيد معرفة بماهية الله.

الله أول ما يتجلّى بأنه قوة. ولكن الويلُ لمن لا يعرفه إلا بهذه. ثم يتجلّى بأنه معرفة. ثم بأنه عطاء أي محبّة. وتألّق الثلاثة في الله هو الجمال.

العمارة، تلك التي تفرق عن الهندسة بأنها من جمال أيضاً، انتهينا إليها قبل سوانا لأننا وحدنا إنما عرفنا الثلاثة في الألوهة: القوة والمعرفة وعلى الأخص المحبّة.

لبنان، منذ هو بادر جمال، عمّر في الأبعاد جميعاً. عمّر في الجوّ، في البحر، في البال. سواه حفر البناء في الحجر،

أما هو فرفع بناءَ الحجر. بعلبك التي من أعمدة ولا أعلى ما كان يمكن أن تتم إلا في لبنان. العظمةُ والجمالُ والارتفاعُ انما مَزْجُها تقليدٌ محضٌ لبنانيّ. سواه بنى للخلائق الدنيا: للحيوان، مثلاً، ألّهه وشاد له المعابد، أما هو فما بنى إلا للإنسان ولله. سواه أنزل خشبة إلى الشاطئ الهادئ، أما هو فبنى السفينةَ قصراً للعمل في عرض البحر، لمعاندة العاصفة، لتحدّي هول الأوقيانوسات. سواه، بغيةَ نقل الألفاظ في الزمان والمكان، نسخها نسخاً: الوفّ هي فصوّر لها أُلُوفَ الصور، أما هو فبنى الكلمة حرفاً حرفاً، أعلاها حجراً حجراً، حتى لقد بات للفكرة قصرٌ تسكنه أميرةً هذه المرة. واليوم بعد أن شرعت الصين تهجر التصويريّة البدائية إلى الهجائية الفينيقية يكون ما بقي شعبٌ في العالم إلا أسكن خواطرَه عمارةً لبنانية. كل مؤسسات البشر، يقول موريس دونان، مكتشفُ جبيل، تتحمّل استكمالاً إلا مؤسسةَ الهجاء، هذه وضعها اللبناني وكأنما وضعها نهائيةً على تمام.

وفي هذا الألف الثاني، الألف النورانيّ العظيم، فيما كنا نكتشف العمار في الجوّ، في البحر، في البال، راح واحدٌ منا يكتشف العمار في المادة. إنه موخوس الصيدوني، من

أبناء القرن الثالث عشر قبل المسيح. « المادة ؟ لاحظ متسائلاً، انها أحَطّ أنواع الكائنات. يستحيل إذن أن لا تكون أقربَ ما يكون إلى العدم. قليلُ وجود في كثيرِ فراغ ». قول موخوس هذا هو أول فرضيّة للذرة، يقول ماسون أورسيل[1] . وعنه، يزيد هذا العالم، إنما أخذ ولا بدّ لوسيب وديموقريت اليونانيان.

انها عمارةُ الكون الصغير تعلو على يد ابن صيدون موخوس، كما، على يد ابن صيدون فيثاغورس، ستعلو عمارةُ الكون الكبير.

إنهما في العالم أولُ ذرّي وأولُ فلكيّ.

هي تقاليد العمار تواصل فعلها وينطنط أصحابها على مقربة من طرفَي الوجود: العدم والله.

هنا ! هنا نحن في أية مغامرة ؟

يوم راحت الصبيّةُ عَشْتريم تُعطي في صيدون إشارةَ البدء بإحراق المدينة، بقصورها والشيوخ والأطفال، لكي لا يبقى وراء المقاتلة ما يَلفتهم إلى الوراء، في مقاومتهم

---

١) « تاريخ الفلسفة » لإميل برييه بالاستناد إلى « جغرافية » سترابون ٦، ١٢ و٢٤.

أكزرسيس الثالث، ذاك الذي جاء يُغرق بطولتهم بالعدد، فمشوا إلى المجد ــ وما يزالون ! ــ ما كانت سكرةُ البطولة الجماعية هذه، على تفرّدها في التاريخ، بأروعَ من سكرة موخوس يدفع عنا، منذ فجر الزمن، سطحيّةَ الحس العام القائل: « إن المادة مِلءٌ بملء ».

وَعْيُ أمجاد لبنان ؟ بلى، إنه للبنان جيش آخر، جيش لا يُقهر.

وأعجب ما تنتهي إليه، فيما أنت تتعمّق أوضاعَ البلد الفريد، شعور أبنائه ــ وحدهم على الأرجح ــ بأن لهم مواطنيّتَين. فكأنما حَتْمٌ على اللبناني أن يكون عالمياً وعلى العالميّ أن يكون لبنانيّاً.

الأُمْويّة اللبنانية، في أشرف ما تَدين به، تفرُق عن سائر الأُمويّات بأنها من لبنان ومن العالَم.

ولبنان، كما الله في اللاهوت، لا يقبل نعتاً لا ينبع من ذاته. كل نعت أجنبيّ تُطلقه على وطن إنما هو اقتلاع لهذا الوطن من شروشه، من أرضه وتاريخه، وخصوصاً من ذاته

التي هي معتزمه العظيم، ثم جعله يتوكّأ على بعض ما هو سواه. عراقتنا في الانسان تجعل وطننا اشبه بهذا المتفرّد الغنيّ الذي هو الشخص. الشخص هو من التمام بحيث لا يتطلّب اكتمالاً بآخر. وهو من الطموح بحيث لا يرضى بديلاً عن الكليّة.

أشبه ما يشبه الأُمْويّة اللبنانية انسانٌ اجتمع فيه الحبّ الى المحبة.

الحُبّ ان تَخُصّ قلبَك بواحد، فان أضفتَ اليه آخر خنتَ الحُبّ. والمحبة ان تمنح نفسَك للبشرية جمعاء، من سَبق أن وجدوا ومن هم في الوجود ومن سوف يوجدون، فان اسقطتَ منهم واحداً خنتَ المحبة.

الأُمويّة اللبنانية، ولربما وحدها، حبّ ومحبّة.
اللبناني ؟ بالحب هو للبنان وحده لا يشرك فيه، وبالمحبة هو للبشرية كلّها لا ينتقص منها ولا أمّة.

من لم يُدرك هذا الثراء، نتفرّد به بحكم تشابك هاتين العاطفتين فينا، (وانهما لذُروة ضَرَبات القلب)، وكيف

انهما من خصائص الانسان المتكامل، استحالتْ عليه معرفةُ ما نحن.

محضُ أُمْوِيّة لبنانية معاذ الله ان نمدّها بأخرى. على انها عالميّةٌ بقدر ما هي ذاتها. إذ أشرفُ ما يمتزج به الحُبّ: المحبة.

وليس لبنانُ ماضيَه وحسب، على جَلالِ ذلك الماضي، ولا هو حاضره وحسب، على تفرّد هذا الحاضر ــ رغم الف هناة تشوبه ــ بانتمائه الى قِيَم مصيريّة أروعها الحرية. وإنما لبنان هو أيضاً، وخاصة، انشداده الى المستقبل. أمّةٌ من فصيلة أُممٍ تأبى ان تحدّ بحدود. ووحدَهُ المستقبل لا يحد بحدود. إذن، برغم ما يطالعك به من ثراء، يَظَلّ لبنانُ الواقعِ هذا لا شيئاً إن هو قيس بلبنان المُعتزَم.

سنربض على صدر الدهر. سنخلق نفسنا استمراراً. (تجدّد لا يَكفّ !). سنُنزل دوماً الى ساحة الوجود أشياء عظمى، أجملُها اعتزامنا بأن نتبدّل ونُبدّل ولكن دوماً صوبَ المزيد من الحَقّ. كلمة الامر عندنا: « نأتي عجباً أو نموت ».

هذا نحن، منذ أن اندلعنا في التاريخ وشَرَرْنا عزْمَنا على البحار. هذا، ولا شك، ما سوف نكونه غداً منذ سنروح نتململ بين السُدُم والنجوم.

فَتْحُنا العقليّ، ذاك الذي تفرّد بين الفتوح بأنه ما شيب بسلاح، إنما ارتضيناه خطّ مُضيّ لا يزال في اشرف الخطوط لا نحيد عنه ولو في أشدّ العهود ظلاماً: من انزالنا الى الوجود الاداتَين العظمَيين لنقل الخير: المركب والحرف، الى كَشْفنا الوحدانية، الى نشاطنا بذوق ولدغة جمال في صيدون، الى تَرَسّلنا لقضية العدل في بيروت، الى صمودنا ــ وكأنما وحدنا في الشرق ــ الى جانب الحرية، ليبقى لنا الحقّ باختيار شكل العيش، والحق بالافصاح عن الرأي، والحق بعبادة الإله الذي نشاء، (مما بلغنا به حدّ التوكيد عالميّاً على حَقّ المرء بتغيير دينه)، الى عيشنا اليوم (وسْطَ صراع العقائد الذي يلوّث ببغض) وكأننا أصفى الخلائقِ ذهناً أو كأننا (على تقاعسنا أحياناً عن الاسهام في العلم) أعرفُ الناس بما يجب أن يكونه روحُ العلم، ذاك الذي به سَيؤَازَرُ الله في استكمال خَلْق الكون.

وجودنا في التاريخ هو، كما ترى، اعمق مغزىً ممّا قد يبسطه القول: « بلدٌ صغير لأمة كبيرة ». وجودُنا كان، كما سيبقى، يداً في البرء من عدم وطرْقاً على باب المستحيل.

« حقائق لبنانية » هو لواحد من رفاقنا بالذات. عقلٌ فتيٌّ منفتحٌ صمد مع لبنان كما ولا احد، لأنه إنما عاش غير مغلق على مجهودات الكشف عن ماهية الأمة العظمى. وهو هنا، في باكورة نتاجه، يقسط لنفسه قسطَ القلم النَير في التفجير والتّرسل. وغداً بعد أن تُصبح هذه الحقائق في كل نبضة قلب، في كل شمخة رأس، سيخجل جَمٌّ من القادرين، لأنهم تقاعسوا فما ولجوا قلبَ المقلع ولا مثله قَصّبوا من الضوء وراحوا به يبنون ويُعلون.

في كتاب جورج سكاف تجرّؤ على مس المُحَرّمات، تنقيبٌ عن الكنز وتنقيته مما يكون علق به من تراب أو مازجَ وهْجَهُ من دُكنة.

مؤلّفٌ شُجاعُ القلب، يقول ما به يتهامسون ولا يكتبون. ولكنه يقوله لا ليهدم وحسب.

هنا عدد من الهرطقات يُفَنّد. بضعةٌ من متوكآت الخريفيّين تتحطم. ليكونَ للأمّة اللبنانية، بكليّتها هذه المرة، نورٌ متألّق حتى ليجذبُ ويهدي، وسُلّمٌ ترقاه حتى لتبلغُ به هذا النور بالذات وتؤازره هو نفسه في صنع نفسه.

لا يُبقي جورج سكاف على أكذوبة ميثاق، وانما يفتح الأعين على إرادة حياة بهيّة مئناف.

وراء الاندفاعة الاستقلالية المعاصرة، يقول، كان اكثر من ضربة مهرَة، كانت مشيئةٌ تقيم من موت. عَزْمٌ شحّ لأمد ولكنّه ما نَضَب. امة عريقة تتحفّز وتتحيّن الفرص، ويوم يؤون الأوان، وتُلهمُ كلمةَ الأمر النابعة من تاريخها العظيم ومن معتزمها الأعظم، تتحرّك فتجرف الصِغر والمتصاغرين.

الذين هم ألسنَةُ الأمّة وقادتُها في معركة البطولة لا يسقطون في حقارة من يقولون: « كان ثمة خيانتان تشدّان لبنان الى خارج نفسه: واحدة الى شرق وأُخرى الى غرب، فعالجناهما بميثاق يحدّ من حدتهما » ماذا ! حقاً كان لبنان فارغاً من لبنان، وإن هو عثر في داخله على شيء

فانما عثر على مُغرورب ومُشرورق ؟ حقاً لم يكن في لبنان من يقول: « أنا لبنانيّ وكفى » ؟.

أكذوبة لاكوها ولاكوها حتى لتكاد فحواها تُظَنّ حقيقة، وعنهم أخذ الوهم، وبأيّ إجرام هذه المرة، واحدٌ ظَنّ أنه إذا نقر نقرة الطائفية كاملة (وتقضي بإيهام الناس بأن لبنان ممزّق، فعلى كلّ أن يعمل لإقامة طائفة لا وطن) استجابت للعبته شراذم متنابذةٌ متحاقدة فتسنّى له جَرّ سيده الأجنبي الى لبنان وحكّمه سيدهُ هذا برقاب القطيع. كَذّبتِ الأمة اللبنانية، الواحدةُ الاصيلة السمحةُ البادرة، حَدْسَ من أراد بها سوءاً، فلم تُلطّخ يدها ولا بمذبحة من التي كانوا قد مهدّوا لها بملعنة عبقرية.

وكان الجيش مثالَ مؤسسات الأمة حضورَ ذهن وصفاءَ وعي، وشهامةَ نظر، فتصرّف وكأنه فوق الأحداث. وهكذا سيطر على الأحداث. كان يعرف أن تصرّفه إنما هو جزء من تاريخ لبنان. هل سمعتَ أن جبلاً تزعزع ؟ هكذا الأمة اللبنانية. وكان الملأ جميعاً واثقاً بها. فإذا نقْدُ لبنان، مثلاً، في ذروة المحنة، لا يتدنّى ولا قرشاً واحداً في سوق واحد من بلد واحد.

لا ليس لبنان اثنين. انه وحدَةٌ رائعة، الجزء منها ــ على تقاعسه احياناً ــ يختصر الكلّ، وهو عند المُلمّات يَصدُر عن عزم الكلّ.

للذود عن لبنان، كُلّ لبنان، حَملَ السيفَ واحدٌ من بطاركته هو اكبر البطاركة، وبوجه الخليفة في بغداد رَفع الصوتَ واحدٌ من أئمته هو انبل الائمة.

« حقائقُ لبنانية » ؟ لأول مرّة أنت أمام كتاب بنّاء وَعدْل يقسمنا كما لم يقسمنا بعد احد: حفنةً ليس الاّ من نفعيين وأمّةً لبنانيةً متراصّة صَنَعتْ وتصنعُ التاريخ.